﴿ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ [1] أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾
[هود]

أي: كُنْ مؤدَّباً مع ربك حين تدعو وتنفَّس عن نفسك ، ودَعْ لحكمة الحكيم الإجابة أو عدمها ، وقد تكون الإجابة فورية أو مؤجَّلة إلى حين أوانها ، وكلاهما خير .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ [2] (٩٠) ﴾

قال الحق سبحانه:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ .. (٩٠) ﴾ لأن الاجتياز لم يكن بأسباب بشرية ، بل بفعل يخرج عن أسباب البشر ، فلو أن موسى عليه السلام قد حفر نفقاً تحت الماء ، أو لو كان قد ركب سفناً هو وقومه لكان لهم مشاركة

(١) الوعظ : النصح بالطاعة والعمل الصالح الإرشاد إلى الخير . قال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما يُلَيِّن قلبه من ثواب وعقاب . [ذكره ابن منظور في اللسان مادة : وعظ] . قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٦٦) : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ .. (٤٦) ﴾ [هود] . أي : إني أنهاك عن هذا السؤال وأحذرك لئلا تكون من الجاهلين . أي: الآثمين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين .

(٢) أتبعهم: اتبع أثرهم ؛ ليدركهم. وكان موسى وقومه بنو إسرائيل في خروجهم ستمائة ألف وعشرين ألفاً ، وتبعهم فرعون مصبحاً في ألفي ألف وستمائة ألف. بغياً وعدواً: أي: في حال بغي وظلم واعتداء. وقال المفسرون: بغياً: طلباً للاستعلاء بغير حق في القول ، «وعدواً» في الفعل. أدركه الغرق: ناله ووصله. قال آمنت: أي: صدَّقت ، أو آمنت - والإيمان لا ينفع حينئذ ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس. [ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٠٤ ، ٣٣٠٥) - بتصرف].

فى اجتياز البحر ، لكن المجاوزة كانت بأسباب غير ملحوظة بالنسبة للبشر ، فالحق سبحانه هو الذى أوحى لموسى :

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ .. (٦٣) ﴾ [الشعراء]

ومياه البحر كأية مياه أخرى تخضع لقانون السيولة ، والاستطراق [١] هو وسيلة السيولة ، وهى عكس التجمد الذى يتسم بالتحيز.

والاستطراق هو الذى قامت عليه أساليب نقل المياه من صهاريج المياه التى تكون فى الأغلب أعلى من طول أى منزل ، ويتم ضخ المياه إليها ؛ لتتوزع من بعد ذلك حسب نظرية الأوانى المستطرقة على المنازل ، أما إذا كانت هناك بناية أعلى طولاً من الصهريج ، هنا يقوم سكان المبنى بتركيب مضخة لرفع المياه إلى الأدوار العالية.

وإذا كان قانون البحر هو السيولة والاستطراق ، فكيف يتم قطع هذا الاستطراق؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء]

فكيف تحول الماء إلى جبال يفصل بينها سراديب وطرق يسير فيها موسى عليه السلام وقومه؟

كيف يسير موسى وقومه مطمئنين ؟

لا بد أنها معية الله سبحانه التى تحميه ، وهى تفسير لقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

---

(١) الاستطراق : عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد فى جميع الأنابيب . [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية].

ورغم ذلك يتبعهم فرعون وجنوده لعله يدركهم ، وأراد سيدنا موسى - عليه السلام - بمجرد نجاحه فى العبور هو وقومه أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود إلى قانون السيولة ، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا فى الممرات التى بين المياه التى تحولت إلى جبال ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد غير ذلك ، فقد أراد الحق سبحانه أن ينجى ويهلك بالشيء الواحد ، فأوحى لموسى عليه السلام:

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا [1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان]

أى: اترك البحر على حاله ؛ فينخدع فرعون وجنوده ، وما إن ينزل آخر جندى منهم إلى الممر بين جبال الماء ؛ سيعود البحر إلى حالة السيولة فيغرق فرعون وجنوده ، وينجو موسى وقومه.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس]

فهل كان هذا الإتباع دليل إرادة الشر ؟

أكان من الممكن أن تكون نية الفرعون أن يدعو موسى وقومه إلى العودة إلى مصر ليستقروا فيها؟

لا ، لم تكن هذه هى نية الفرعون ؛ لذلك قال الحق سبحانه عن هذا الإتباع: ﴿ بَغْيًا وَعَدْوًا .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس]

أى: أنه اتباع رغبة فى الانتقام والإذلال والعدوان .

ويصور القرآن الكريم لحظة غرق فرعون بقوله:

---

(١) قال الأزهرى: رهواً ساكناً من نعت موسى ، أى: على هَيْنَتك. قال: وأجود منه أن تجعل رهواً من نعت البحر ، وذلك أنه قام فرقاه ساكنين فقال لموسى: دع البحر قائماً ماؤه ساكناً واعبر أنت البحر. [ذكره ابن منظور فى اللسان ، مادة: رها] فقوله تعالى: ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ..﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان] أى: ساكن الأمواج ليغتروا فينزلوا فيه.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس]

والإدراك: قصد للمدرك أن يلحق بالشيء ، والغرق معنى ، فكيف يتحول المعنى إلى شيء يلاحق الفرعون ؟

نعم ، فكأن الغرق جندي من الجنود ، وله عقل ينفعل ؛ فيجرى إلى الأحداث :

﴿ .. حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ[1] ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس]

والإيمان إذا أطلق فهو الإيمان بالقوة العليا ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى قد قال:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات]

لأن الإيمان يتطلب انقياد القلب ، والإسلام يقتضي اتباع أركان الإسلام ، فالإيمان كما قال رسول الله ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم »[2]. وفي هذا القول ذكر محدد بأن الإيمان إنما يكون لله الأعلى.

لكن لو قلت - مثلاً: «آمنت أنك رجل طيب» فهذا إيمان له متعلق ، أما إذا ذُكر الإيمان بإطلاق فهو ينصرف إلى الإيمان بالله تعالى ؛ ولذلك قال الله سبحانه للأعراب:

﴿ وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات]

---

(١) وأنا من المسلمين ، أي: من الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة. وهو قول متأخر جداً جاء بعد فوات الأوان.

(٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم». أخرجه مسلم في صحيحه (٣٨) وأحمد في مسنده (٤/ ٣٨٥).

وهنا يأتى القول على لسان فرعون:

﴿ . .آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾

[يونس]

والخلاف هنا كان بين الفرعون كجهة كفر ، وبين موسى وهارون وقومهما كجهة إيمان ، وأعلن فرعون إيمانه ، وقال أيضاً :

﴿ . .وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

ولم يقبل الله ذلك منه بدليل قول الحق سبحانه:

﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾[1]

وهذا يعنى : أتقول إنك آمنت الآن وإنك من المسلمين . إن قولك هذا مردود ؛ لأنه جاء فى غير وقته ، فهناك فرق بين إيمان الإجْبار وإيمان الاختيار ، أتقول الآن آمنت وأنت قد عصيت من قبل ، وكنت تفسد فى الأرض .

وكان من الممكن أن يقبل الله سبحانه منه إيمانه وهو فى نجوة[2] بعيدة عن الشر الذى حاق[3] به .

(١) قيل: هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل . وقيل : ميكائيل ، أو غيرهما من الملائكة - عليهم السلام - وقيل : هو من قول فرعون فى نفسه ، ولم يكن ثَمَّ قول باللسان ، بل وقع ذلك فى قلبه فقال فى نفسه ما قال حيث لم تنفعه الندامة . ونظيره : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ . . (٩) ﴾ [الإنسان] أثنى عليهم الرب سبحانه بما فى ضميرهم ، لا لأنهم قالوا ذلك بلفظهم . والكلام هنا هو كلام القلب . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٤/٣٣٠٦] - بتصرف .

(٢) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

(٣) حاق به الشىء يحيق حيقاً : نزل به ، وأحاط به . وقيل : الحيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكروه فَعَلَه . قال تعالى : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) ﴾ [غافر] وقال تعالى : ﴿ . .إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) ﴾ [الأحقاف] .

فالحق سبحانه لا يقبل إيمان أحد بلغت روحه الحلقوم ، فهذا إيمان إجبار ، لا إيمان اختيار .

ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لأجبر الحق سبحانه الخلق كلهم على أن يؤمنوا ، ولما استطاع أحد أن يكفر بالله تعالى ، وأمامنا الكون كله خاضع لإمرة الله - سبحانه وتعالى - ولا يتأبى فيه أحد على الله تعالى .

وقدرة الحق - عز وجل - المطلقة قادرة على إجبار البشر على الإيمان ، لكنها تثبت طلاقة القدرة ، ولا تثبت المحبوبية للمعبود .

وهذه المحبوبية للمعبود لا تثبت إلا إذا كان لك خيار فى أن تؤمن أو لا تؤمن . والله سبحانه يريد إيمان الاختيار[1] .

إذن : فالمردود من فرعون ليس القول ، ولكن زمن القول .

ويقال : إنها رُدَّتْ ولم تُقبل - رغم أنه قالها ثلاث مرات - لأن قوم موسى فى ذلك الوقت كانوا قد دخلوا فى مرحلة التجسيم لذات الله وادعوا - معاذ الله - أن الله - تعالى الله عما يقولون - جلس على صخرة وأنزل رجْليه فى حوض ماء ، وكان يلعب مع الحوت . . إلى آخر الخرافاتَ التى ابتدعها بنو إسرائيل .

وحين أعلن فرعون أنه آمن بالإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، فهذا يعنى أنه لم يؤمن بالإله الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس].

ونحن نعرف أن الإنسان مكوَّن من بدن ، وهو الهيكل المادى المصوَّر على تلك الصورة التى نعرفها ، وهناك الروح التى فى البدن ، وبها تكون الحركة والحياة.

وساعة نقول : «بدن» ، فافهم أنها مجردة عن الروح ، مثلما نقول: جسد . وإذا أطلقت كلمة «جسد» فمعناها الهيكل المادى المجرد من الروح.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. (٣٤) ﴾ [ص]

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - يستمتع بما آتاه الله سبحانه من الملك ما لا ينبغى لأحد من بعده ، وسخَّر له الجن والرياح وعلّمه كل اللغات ، وكان صاحب الأوامر والنواهى والهيمنة ، ثم وجد نفسه قاعداً على كرسيه بلا حراك وبلا روح ، ويقدر عليه أى واحد من الرعية ، ثم أعاد الله له روحه إلى جسده ، وهو ما يقوله الحق سبحانه:

﴿ ..ثُمَّ أَنَابَ (١) (٣٤) ﴾ [ص]

أى: أنه أفاق لنفسه ، فعلم أن كل ما يملكه هو أمر مُفاضٌ عليه ، لا أمر نابع من ذاته.

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه:

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً (٢) ..(٩٢) ﴾ [يونس]

---

(١) أناب: رجع إلى الله تعالى بالتوبة . [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].
(٢) ننجيك: نخرجك من البحر . ببدنك: بجسدك الذى لا روح فيه . لتكون لمن خلفك: بعدك . آية: عبرة ؛ فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك . وعن ابن عباس أن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موته فأخرج لهم ليروه . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] . وقد قرأ اليزيدى وابن السميقع «ننحّيك» بالحاء ، أى: تكون على ناحية من البحر ليروك.

وبالله ، لو لم يأمر الحق البحر بأن يلفظ جثمان فرعون ، أما كان من الجائز أنَ يقولوا: إنه إله ، وإنه سيرجع مرة أخرى ؟

ولكن الحق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أى حيوان غارق ؛ حتى لا يكون هناك شك فى أن هذا الفرعون قد غرق ، وحتى ينظر من بقى من قومه إلى حقيقته ، فيعرفوا أنه مجرد بشر ، ويصبح عبرة للجميع ، بعد أن كان جباراً مسرفاً طاغية يقول لهم :

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي..﴿٣٨﴾﴾ [القصص]

وبعض من باحثى التاريخ يقول: إن فرعون المقصود هو «تحتمس» ، وإنهم حلَّلوا بعضاً من جثمانه ، فوجدوا به آثار مياه مالحة.

ونحن نقول: إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو توصيف لوظيفة ، ولعل أجساد الفراعين المحنطة تقول لنا: إن علة حفظ الأبدان هى عبرة ؛ وليتعظ كل إنسان ويرى كيف انهارت الحضارات ، وكيف بقيت تلك الأبدان آية نعتبر بها.

وقد تعرض القرآن لمسألة الفرعون ، فقال الحق سبحانه :

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ [1] ﴿١٠﴾﴾ [الفجر]

ويقول سبحانه فى نفس السورة عن كل جبار مفسد :

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ [2] ﴿١٤﴾﴾ [الفجر]

---

(١) قيل فى معنى ذى الأوتاد: لأن فرعون كان يعذب الناس بأربعة أوتاد [مختصر تفسير الطبرى: ص ٥١٣]. وذكر فى تفسير الجلالين (ص ٣٩٨) أن فرعون كان يَتدُ لكل من يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه. وفى [كلمات القرآن للشيخ حسنَين محمد مخلوف] الأوتاد: الجنود أو المبانى القوية.

(٢) إن ربك لبالمرصاد: يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها. [كلمات القرآن].

ونلحظ أن كلام الحق سبحانه عن فرعون فى سورة الفجر كان كلاماً يضمُّ إلى جانب حضارة الفراعنة حضارات أخرى قديمة ، مثل حضارة عاد وحضارة ثمود .

وكذلك تكلم الحق سبحانه عن الفرعون فى أثناء لقطات قصة موسى عليه السلام ، ولكن الكلام يختلف فى قصة يوسف عليه السلام ، فلا تأتى وظيفة الفرعون ، بل يحدثنا الحق سبحانه عن وظائف أخرى ، هى وظيفة «عزيز مصر» - أى : رئيس وزرائها - ويحدثنا الله سبحانه عن ملك مصر بقوله :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ .. (٥٠) ﴾ [يوسف]

ولم يُكْتَشَفَ الفارق بين وظيفة «الفرعون» ووظيفة «الملك» فى التاريخ المصرى إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وفك «شامبليون» رموز اللغة الهيروغليفية من خلال نقوش حجر «رشيد» ، فعرفنا أن حكام مصر القديمة كانوا يسمون « الفراعنة» إلا فى فترة كانت فيها مصر تحت حكم «ملوك الرعاة» أو «الهكسوس» الذين أغاروا على مصر ، وحكموها حكماً ملكياً وقضوا على حكم الفراعنة ، ثم عاد الفراعنة إلى حكم مصر بعد أن خلصوها من سيطرة «الهكسوس».

وهكذا نجد أن إشارة القرآن فى قصة يوسف - عليه السلام - كانت إلى الملك ، ولم يأت فيها بذكر فرعون ، وهذا دليل على أن القرآن قد سبق بعلمه أى اكتشاف ، وكلما جاء اكتشاف جديد أو ابتكار حقيقى ، نجده يؤيد كتاب الله .

ويُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ .. وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ [1] (٩٢) ﴾ [يونس]

(١) وإن كثيراً من الناس : أى : أهل مكة . عن آياتنا غافلون : لا يعتبرون بها . [تفسير الجلالين ص ١٨٧].

وهذا القول يوضح أن هناك من يغفل عن الآيات ، وهناك من لا يغفل عنها ، و ينظر إلى تلك الآيات ويتأملها ويتدبرها ، ويتساءل عن جدوى كل شيء ، فيصل إلى ابتكارات واختراعات ينتفع بها الإنسان، أُذن بميلادها عند البحث عنها ؛ لتستبين عظمة الله في خلقه .

وحين ينظر الإنسان فى تلك الابتكارات سيجدها وليدة أفكار مَنْ نظروا بإمعان ، وامتلكوا قدرة الاستنباط ، ولو لم يغفل الناس عن النظر فى آيات الكون ، والسموات والأرض ، لزادت الابتكارات والاختراعات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ [1] فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وحين ننظر إلى مكتشف قانون الجاذبية «نيوتن» الذى رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرتها ، نجد أن هناك عشرات الآلاف أو الملايين من البشر شاهدوا من قبله مشهد سقوط ثمرة من على شجرة ، ولكن نيوتن وحده هو الذى تفكر وتدبر ما يحدث أمامه إلى أن اهتدى إلى اكتشاف قانون الجاذبية .

وجاء من بعد نيوتن من بنى سفن الفضاء التى تستفيد من هذا القانون وغيره .

وكذلك نجد من صَمَّم الغواصات ، والبواخر العملاقة التى تشبه المدن العائمة ، هؤلاء اعتمدوا على من اكتشف قانون «الطفو» وقاعدة «أرشميدس» الذى لاحظ أنه كلما غطس شيءٌ فى المياه ، ارتفع الماء بنفس حجم الشيء الغاطس فيه .

---

(١) كأين من آية : كم من آية - كثير من الآيات . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .

كل هؤلاء اكتشفوا - ولم يخلقوا - أسراراً كانت موجودة فى الكون ، وهم تميَّزوا بالانتباه لها .

وكذلك العالم الذى اكتشف «البنسلين» قد لاحظ أن أصيصاً[1] من المواد العضوية كانت تنزل منه قطرات من الماء العفن ، ورأى الحشرات التى تقترب من هذا الماء تموت ، فأخذ عينة من هذا العفن وأخذ يُجرى عليها بعض التجارب فى معمله إلى أن اكتشف «البنسلين» .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف]

فكأنهم لو لم يعرضوا لاستنبطوا من آيات الكون الشىء الكثير .

وكذلك القصص التى تأتى فى القرآن ، إنما جاءت ليعتبر الناس ويتأملوا ، فحين يرسل الله رسولاً مؤيَّداً بمعجزة منه لا يقدر عليها البشر ؛ فعلى الناس أن يسلّموا ويقولوا : «آمنا» ، لا أن يظلوا فى حالة إعادة للتجارب السابقة ؛ لأن ارتقاءات البشر فى الأمور المادية قد تواصلت ؛ لأن كل جيل من العلماء يأخذ نتائج العلم التى توصل إليها مَنْ سبقوه ، فلماذا لا يحدث هذا فى الأمور العقدية ؟

ولو أن الناس بدأوا من حيث انتهى غيرهم ؛ لوجدنا الكل مؤمناً بالله تعالى ، ولأخذ كل مولود الأمر من حيث انتهى أبوه ، ولَوصَل خير آدم

(١) الأص (بفتح الهمزة ، وبكسرها ، وبضمها) : الأصل . والأصيص : أصل الدَّن (إناء) أى : أسفله ويقال : هو كهيئة الجر له عروتان يُحمل فيه الطين . وفى الصحاح : الأصيص ما تكسر من الآنية ، وهو نصف الجر أو الخابية تزرع فيه الرياحين . [لسان العرب : مادة (أ ص ص)] . وتطلق هذه الكلمة على أوان من الفخار تصنع خصيصاً لزراعة الأزهار والنباتات .

إلى كل من وُلِدَ بعد ذلك ، لكن آفة البشر أن الإنسان يريد أن يجرب بنفسه.

ونحن نجد ذلك فى أمور ضارة مثل: الخمر ، نجدها ضارة لكل من يقرب منها ، فإذا حرَّمها الدين وجدنا من يتساءل: لماذا تُحرَّم ؟

وكذلك التدخين ؛ نجد من يجربه رغم أن التجارب السابقة أثبتت أضراره البالغة ، ولو أخذ كل إنسان تجارب السابقين عليه ؛ فهو يصل عمره بعمر الآخرين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (1) ﴿٩٣﴾ ﴾

وكلمة «تبوأ» تعنى إقامة مباءة أى: البيوت التى يكون فيها السكن الخاص ، وإذا أطلقت كلمة «مبوأ» فهى تعنى الإقليم أو الوطن.

والوطن أنت تتحرك فيه وكذلك غيرك ، أما البيت فهو للإنسان وأسرته كسكن خاص.

أما الثرى فقد يكون له جناح خاص فى البيت ، وقد يخصص الثرىُّ فى منزله جناحاً لنفسه ، وآخر لولده وثالثاً لابنته.

أما غالبية الناس فكل أسرة تسكن فى «شقة» قد تتكون من غرفة أو اثنتين أو ثلاثة حسب إمكانات الأسرة.

(١) بوأنا: أنزلنا. مبوأ صدق: منزل كرامة وهو مصر والشام. فما اختلفوا: بأن آمن بعضهم وكفر بعضهم. [تفسير الجلالين: ص ١٨٧ - بتصرف].

إذن: فيوجد فرق بين تبوُّء البيوت وتبوء المواطن، فتبوُّء المواطن هو الوطن.

وسبق أن قال الحق سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام:

﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ..(٨٧) ﴾ [يونس]

هذا في التبوء الخاص، أما في التبوء العام فهو يحتاج إلى قدرة الحق تعالى، وهو سبحانه يقول هنا:

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

والحق سبحانه أتاح لهم ذلك في زمن موسى - عليه السلام - وأتاح لهم السكن في مصر والشام، وهو سبحانه القائل:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ[1] بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ..(١) ﴾ [الإسراء]

وما دام الحق سبحانه قد بارك حوله فلا بد أن فيه خيراً كثيراً، ولا بد أن تكون الأرض التي حوله مُبوأً صدق.

وكلمة «الصدق» تعني جماع الخير والبر؛ ولذلك نجد الرسول ﷺ حينما سئل: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم». وحين سئل: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم». وحين سئل: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا»[2].

---

(١) سبحان الذي أسرى بعبده: تنزيهاً وتبرئة لله سبحانه وتعالى مما يقول فيه المشركون. والإسراء والسُّرى: السير في الليل. المسجد الأقصى: بيت المقدس. الذي باركنا حوله: لسكانه في معايشهم وأقواتهم. [مختصر تفسير الطبري: ص ٣١٣].

(٢) أخرجه الإمام مالك في موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً.

ولذلك فأنت تجد فى الإسلام عقوبة على الزنا ، وعقوبة تقام على السارق [1] ، أما الكذب فهو خصلة لا يقربها المسلم ؛ لأن عليه أن يكون صادقاً. وكل خصال الخير هى مُبوأ الصدق.

ولذلك نجد قول الحق سبحانه:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ [2] ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء]

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ [3] .. ﴿٢﴾ ﴾ [يونس]

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ [4] ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء]

أى: اجعل لى ذكرى حسنة فلا يقال فلان كان كاذباً ، وأما قدم الصدق فهى سوابق الخير التى يسعى إليها ؛ ولذلك كان الجزاء على الصدق هو ما يقول عنه الحق سبحانه:

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ [5] ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر]

---

(١) قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة هى جرائم الحدود ، وهى: الزنا ، والقذف ، والسرقة ، والسُّكْر ، والمحاربة ، والردة ، والبغى ؛ وذلك لتحقيق صيانة للمجتمع من نواحى: الدين ، العقل ، المال ، العرض ، النفس. ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها ليتم تنفيذ العقوبة الخاصة بها. انظر تفصيل هذا فى كتب الفقه (أبواب الحدود).

(٢) وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، أى: أدخلنى المدينة إدخالاً مرضياً لا أرى فيه ما أكره. وأخرجنى: من مكة مخرج صدق: إخراجاً لا ألتفت بقلبى إليها. [تفسير الجلالين: ص ٢٥١].

(٣) قدم صدق: سابقة فضل ، ومنزلة رفيعة. [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٤) لسان صدق: ثناء حسناً وذكراً جميلاً. [كلمات القرآن].

(٥) مقعد صدق: مكان مرضى. [كلمات القرآن]. عند مليك: ذى مُلك. مقتدر: على كل ما يشاء ، لا إله إلا هو. [مختصر تفسير الطبرى: ص ٦٠٧].

وهو مقعد عند مليك لا يبخل ، ولا يجلس في رحابه إلا من يحبه ، ولا يضن بخيره على من هم في رحابه .

ومقعد الصدق هو جزاء لمن استجاب له ربه فأدخله مدخل صدق ، وأخرجه مخرج صدق ، وجعل له لسان صدق ، وقدم صدق .

وبعد أن بوأ الحق سبحانه بني إسرائيل مُبوأً صدق ، في مصر والشام ، وبعد أن قال لهم :

﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ [1] ..(٦١) ﴾ [البقرة]

أي : أن الحق سبحانه حقق قوله :

﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ..(٩٣) ﴾ [يونس]

وأنجاهم من فرعون ، وكان من المفترض أن تستقيم أمورهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ..(٩٣) ﴾ [يونس]

والمقصود بذلك هو معرفتهم بعلامات الرسول الخاتم محمد ﷺ ، ومنهم من ترقب مجيء النبي ﷺ ليؤمن به ، ومنهم من تمادى في الطغيان ؛ لذلك قطَّعهم الله - سبحانه - في الأرض أمماً .

وحين ننظر إلى دقة التعبير القرآني نجده يحدد مسألة التقطيع هذه ، فهم في كل أمة يمثلون قطعة ، أي : أنه سبحانه لم يُذوِّبهم في الشعوب . بل لهم في كل بلد ذهبوا إليه مكانٌ خاصٌ بهم ، ولا يذوبون في غيرهم .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ [2] لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ..(١٠٤) ﴾ [الإسراء]

---

(١) اهبطوا : انزلوا . مصراً : من الأمصار ، أي : بلداً من البلاد .
(٢) من بعده : أي من بعد إغراق فرعون .

وقد يقول أحد السطحيين: وهل هناك سكن فى غير الأرض ؟

ونقول: لنا أن نلحظ أن الحق سبحانه لم يحدد لهم فى أية بقعة من الأرض يسكنون ، فكأن الحق سبحانه قد بيَّن ما أصدره من حكم عليهم بالتقطيع فى الأرض أمماً ؛ فهو سبحانه القائل:

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا [1] .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

وإذا كنا نراهم فى أيامنا هذه وقد صار لهم وطن ، فاعلم أن الحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) ﴾ [الإسراء]

وقد قال فى آخر سورة الإسراء:

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا [2] (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

والمجيء بهم لفيفاً إنما يعنى أن يجمعهم فى وطن قومى لتأتى لهم الضربة القاصمة التى ذكرها الحق سبحانه فى قوله:

﴿ .. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا [3] (٧) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أى: فرقناهم فى الأرض فرقاً . [تفسير الجلالين: ص ١٤٦].

(٢) لفيفاً: جميعاً.

(٣) أى: إذا أفسدتم الكرَّة الآخرة وجاء أعداؤكم ليسوءوا وجوهكم ، أى: يهينوكم ويقهروكم ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ..(٧) ﴾ أى: بيت المقدس ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ..(٧) ﴾ أى: فى التى جاسوا فيها خلال الديار ﴿ .. وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) ﴾ أى: يدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه تدميراً . بتصرف من تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦) وقد ذكر ابن كثير قول قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحى محمداً ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون ، وهذا لا ينفى أن يحدث عدة مرات ، ولذلك قال رب العزة: ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ..(٨) ﴾ [الإسراء].

لأننا لن نستطيع أن نحاربهم فى كل بلد من البلاد التى قطّعهم الله فيها ، لكنهم حين يجتمعون فى مكان واحد، إنما يسهل أن ينزل عليهم قضاء الله.

وحين ننظر إلى رحلتهم نجد أن «يثرب» كانت المكان الذى اتسع لهم بعد اضطهادات المجتمعات التى دخلوا إليها ، وحين اجتمعوا فى يثرب صار لهم الجاه ؛ لأنهم أهل علم ، وأهل اقتصاد ، وأهل حرب.

وهم قد اجتمعوا فى المدينة ؛ لأن المخلصين من أهل الكتاب أخبروهم أن هذه المدينة هى المهجر لنبى ورسول يأتى من العرب فى آخر الزمان ؛ فمكثوا فيها انتظاراً له ، وكانوا يقولون لكفار قريش: «لقد أظل زمان يأتى فيه نبى نتبعه ، ونقتلكم فيه قَتل عاد وإرم »[1].

وكان من المفروض أن يؤمنوا برسالته ﷺ ، لكنه ما إن أطل رسول الله ﷺ بنور رسالته حتى أنكروه خوفاً على سلطتهم الزمنية.

وهو ما تقول عنه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

أى : أن علمهم بمجيء الرسول ﷺ هو مصدر اختلافهم ، فمنهم من سمعوا إشارات عنه ﷺ وعرفوا علاماته ﷺ ؛ فآمنوا به ، ومنهم من لم يؤمن به.

---

(١) قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة] وعن أشياخ من الأنصار قالوا: كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن نتبعه ، قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به. ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق.

وهم لم يختلفوا من قبل وكانوا متفقين ، وتوعَّدوا المشركين من قريش. وما إن أهلَّ الرسول ﷺ وعلمت به «الأوس» و«الخزرج» أنه رسول من الله تعالى قد ظهر بمكة ، فقالت الأوس والخزرج: إنه النبى الذى توعَّدتنا به يهود ، فهيا بنا لنذهب ونسبقهم إليه قبل أن يسبقونا ، فيقتلونا به.

فكأن اليهود هم الذين تسببوا فى هجرة النبى ﷺ إلى المدينة ؛ لأن الأوس والخزرج سبقوهم إليه ؛وهذا لنعلم كيف ينصر الله تعالى دينه بأعدائه.

ولذلك نجد أنهم فى اختلافهم يأتى عبد الله بن سلام (١) إلى رسول الله ﷺ ويقول: إن اليهود قوم بُهْتٌ ، وإذا أنا آمنت بك يا رسول الله سيقولون فىَّ ما يسىء إلىَّ ؛ لذلك فقبل أن أعلن إسلامى اسألهم عنِّى .

وكان ابن سلام فى ذلك يسلك سلوكاً يتناسب مع كونه يهودياً ، ولما اجتمع معشر اليهود ، سألهم النبى ﷺ وقال: ما تقولون فى ابن سلام ؟

قالوا: حَبْرُنا وشيخنا وهو الورع فينا ، وبعد أن أثنوا عليه ثناء عظيماً ، قال ابن سلام: يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

وهنا بدأ اليهود يكيلون له السِّباب ، فقال ابن سلام: ألم أقُلْ لك يا

---

(١) هو: عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، كان اسمه الحصين وسماه النبى ﷺ عبد الله ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية . ولما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب ، واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ (الأعلام - للزركلى ٤/ ٩٠).

رسول الله إنهم قوم بُهْت[1] ؟

إذن : فمعنى قوله سبحانه :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

أى : أن أناساً منهم بقوا على الباطل ، وأناساً منهم آمنوا بالرسول الحق ﷺ .

وينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) ﴾ [يونس]

أى : أن الله سبحانه وتعالى سوف يقضى بين من جاءوا فى صف الإيمان ، وبين مَنْ بَقَوْا على اليهودية المتعصبة ضد الإيمان .

ونحن نلحظ أن كلمة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ توضح أن الضمير عام ، لهؤلاء ولأولئك .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقضى يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين ، ويقضى أيضاً بين الكافرين ، فمنهم من كان ظالماً لكافر ،

---

(١) عن أنس بن مالك أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبى ﷺ المدينة ، فأتاه يسأله عن أشياء فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؛ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال : أخبرنى به جبريل آنفاً . قال ابن سلام : ذاك عدو اليهود من الملائكة . قال : أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عنّى قبل أن يعلموا بإسلامى . فجاءت اليهود ، فقال النبى ﷺ : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا . وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبى ﷺ : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك . فأعاد عليهم ؛ فقالوا مثل ذلك . فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قالوا : شرنا وابن شرنا ، وتنقّصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٠٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

ومنهم من كان مختلساً أو مرتشياً ، ومنهم من عمل على غير مقتضى دينه ؛ لذلك يقضى الله سبحانه بينهم.

والآية تفيد العموم فى القضاء ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بين كل مؤمن وكافر ، وبين كل تائب وعاصٍ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ(1) مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ(2) ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ(3) ﴿٩٤﴾ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ .

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ قد قال من البداية إنه لا يشك فى رسالته ، وحين وعده أهله بالسيادة قال :

«والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك

---

(١) المخاطب بهذه الآية محمد ﷺ والمراد به غيره ، وكذلك الآية بعدها : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾[يونس] ، وقد تأول بعض العلماء الشك هنا بأنه ضيق الصدر ، أى : إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صبر الأنبياء من قبلك على أذى قومهم وكيف عاقبة أمرهم . [تفسير القرطبى ٤/ ٣٣١٠] .

(٢) فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك : من أهل التوراة والإنجيل ، كعبد الله بن سلام . وقيل : إن رسول الله ﷺ - لما نزلت هذه الآية - قال : «ما أشك ولا أسأل» . وقد علم الله ذلك منه ، ومخرج هذا القول ، كقول الرجل لابنه : إن كنت ابنى فبرنى - من البر - أى : كن باراً بى . وهو لا يشك فى أنه ابنه . من الممترين : الشاكِّين . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٢٤١] .

(٣) امترى فى الشىء : شك فيه ولم يستيقن . وتمارى القوم به : تجادلوا . وتمارى فى الشىء : تشكك فيه . قال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم] أى : تشكك ، ويتضمن معنى التكذيب . [القاموس القويم] وراجع : لسان العرب مادة [مرى] .

هـذا الأمـر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته »[١] .

نقول: إن الحق سبحانه وتعالى يضمر خطاب الأمة فى خطاب رسوله ﷺ ؛ لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب وهو موجَّه بهذا الأسلوب إلى الرسول ﷺ فهم لن يستنكفوا[٢] عن أيٍّ أمر يصدر إليهم.

ومثال ذلك: لو أن قائداً يصدر أمراً لاثنين من مساعديه اللذين يقودان مجموعتين من المقاتلين ، فيقول القائد الأعلى لكل منهما: إياك أن تفعل كذا أو تصنع كذا. والقائد الأعلى بتعليماته لا يقصد المساعدين له ، ولكنه يقصد كل مرءوسيهم من الجند.

وجاء الأمر هنا لرسول الله ﷺ ؛ لتفهم أمته أن الرسول ﷺ ما كان ليتأبَّى على أمر من أوامر الله ، بل هو ﷺ ينفِّذ كل ما يؤمر به بدقة[٣] ؛ وذلك من باب خطاب الأمة فى شخصية رسولها ﷺ .

وقول الحق سبحانه:

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ..(٩٤)﴾ [يونس]

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبى طالب: يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا و الله لا نصبر على هذا من شَتْم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعَيْب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا بن أخى ، إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، فأبْقِ علىَّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق. فقال له رسول الله ﷺ هذه المقالة.

(٢) الاستنكاف: الامتناع تكبراً وأنفة. ومنه قوله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)﴾ [النساء].

(٣) ومصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ .. (١٥)﴾ [الشورى].

هذا القول دليل على أن الذين عندهم علم بالكتاب من السابقين على رسول الله ﷺ ، يعرفون الحقائق الواضحة عن رسالته ﷺ .

وإن الذين يكابرون ويكفرون برسول الله ﷺ ورسالته إنما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وقد قال عبد الله بن سلام : «لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد»[(١)] .

إذن : فالحق عندهم واضح مكتوبٌ في التوراة[(٢)] من بشارة به ﷺ ، وهذا يثبت أنك يا محمد صادق في دعوتك ، بشهادة هؤلاء .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ .. لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾ [يونس]

والحق القادم من الله تعالى ثابت لا يتغير ؛ لأنه واقع ، والواقع لا يتعدد ، بل يأتي على صورة واحدة .

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٩٤) أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإني لا أدري ما كان من أمه .

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وعن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو ، كان يقول : إن هذه الآية التي في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) ﴾ [الأحزاب] هي في التوراة : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك : المتوكل ، لست بفظٍّ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن نقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غلفاً . أخرجه البخاري في كتاب التفسير (٨/ ٥٨٥ فتح) والبيهقي في الدلائل (١/ ٣٧٥) .

أما الكذب فيأتى على صور متعددة .

ولذلك فمهمة المحقِّق الدقيق أن يقلّب أوجه الشهادات التى تقال أمامه فى النيابة أو القضاء ؛ حتى يأتى حكمه مصيباً لا مدخل فيه لتناقض ، ولا يعتمد على تخيُّل أو أكاذيب .

وقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ ..(٩٤) ﴾ [يونس]

إنما يدل على أن الذين قرأوا الكتاب قد عرفوا أنك رسول الله حقّاً ، ومنهم من ترك معسكر اليهودية ،وجاء إلى معسكر الإيمان بك ؛ لأن الحق الذى جاء لا دخل للبشرية فيه ، بل جاء من ربك :

﴿ ..فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾ [يونس]

ومجىء الخطاب بهذا الشكل ، هو كما قلت موجَّه إلى الأمَّة المؤمنة فى شخص الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ [1] ..(٦٥) ﴾ [الزمر]

هذا القول نزل على رسول الله ﷺ ، ومن غير المعقول أن يشرك النبى ﷺ ، وكل الآيات التى تحمل معانى التوجيه فى الأمور المنزَّه عنها رسول الله ﷺ خاصَّة بأمته .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

(١) أى : لئن أشركت بالله أحداً ؛ ليبطلن عملك . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٥٢٧] بتصرف . وحبوط الأعمال بطلانها وفسادها رغم تحصيلها . وأصله إذا حبطت الماشية . أى : تأكل فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها [انظر اللسان مادة : حبط] .

﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾

[يونس]

والقول الحكيم ساعة يوجِّه إلى الخير قد يأتى بمقابله من الشر ؛ لتتضح الأشياء بالمقارنة.

ونحن فى حياتنا اليومية نجد الأب يقول لابنه: اجتهد فى دروسك، واستمع إلى مدرِّسيك جيِّداً حتى تنجح، فلا تكن مثل فلان الذى رسب، والوالد فى هذه الحالة يأتى بالإغراء الخيِّر، ويصاحبه بمقابله، وهو التحذير من الشر.

وقد قال الشاعر:

فالوَجْهُ مثلُ الصُّبحِ مُبْيَضٌّ والشَّعْرُ مثلُ الليلِ مُسْوَدُّ
ضِدَّانِ لمَّا استجمعا حَسُنَا والضِّدُّ يُظْهِر حُسْنَهُ الضِّدُّ[1]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ (٩٥) ﴾

وآيات الله سبحانه كما نعرفها متعددة ؛ إما آيات كونية وهى الأصل فى المعتقد الأول بأن خالقها هو الخالق الأعلى سبحانه، وتُلْفت هذه الآيات إلى بديع صُنْعه سبحانه، ودقة تكوين خلقه، وشمول قدرته.

وكذلك يُقصد بالآيات ؛ المعجزات المنزلة على الرسل - عليهم السلام - لتظهر صدق كل رسول فى البلاغ عن الله تعالى.

(١) الأضداد : فى ظهورها تظهر ميزات ما فيها ، فنحن لا نعرف قيمة الحق إلا إذا تذوَّقنا مرارة الباطل ، ولا نعرف قيمة النهار إلا إذا عشنا الليل فى إظلامه ، ولا نعرف جمال العدل إلا إذا اكتوينا بنار المظالم.

وآيات القرآن الكريم التى تحمل منهج الله .

وهم كانوا يُكذِّبون بكل الآيات.

والخطاب فى هذه الآية هو خطاب للنبى ﷺ ، وجاء معطوفاً على ما فى الآية السابقة ، حيث يقول الحق سبحانه:

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس]

وكل ما يرد من مثل هذا القول لا يصح أن نفهم منه أن رسول الله ﷺ من الممكن أن يشك ، أو من المحتمل أن يكون من الذين كذَّبوا بآيات الله - سبحانه وتعالى - ولكن إيراد مثل هذا الأمر ، هو إيراد لدفع خواطر البشرية ، أيّاً كانت تلك الخواطر ، فإذا وجدنا الخطاب المراد به رسول الله ﷺ فى التنزيل ، فغاية المراد اعتدال موازين الفهم فى أمّته تعليماً وتوجيهاً؛ لأن المنهج مُنزّل عليه لتبليغه لأمته فهو شهيد على الأمم [1].

وإذا كانت الآية التى سبقت توضح: إن كنت فى شك فاسأل ، فهو سبحانه يعطيه السؤال ؛ ليستمع منه إلى الجواب ، وليُسْمعه لكل الأمة ؛ الجواب القائل: أنا لا أشك ولا أسأل ، وحسبى ما أنزل الله سبحانه عليَّ.

ألم يَرِدْ فى القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى يقول للملائكة يوم القيامة بمحضر من عبدوا الملائكة ، ويشير إلى هؤلاء الذين عبدوا الملائكة ومخاطباً ملائكته :

﴿ .. أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سبأ]

ونحن نعلم أن الملائكة :

﴿ ..لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

(١) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] .

والحق سبحانه يعلم مسبقاً جواب الملائكة ، وهم يقولون :

﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ..(٤١) ﴾ [سبأ]

ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يُسْمِع من فى الحشر كلهم جواب الملائكة وهم يستنكرون أن يعبدهم أحد من الخَلق ، فهؤلاء الخلق إنما عبدوا الجن .

إذن : فالسؤال جاء ؛ ليبين الرد عليه ، مثلما يرد عيسى عليه السلام حين يُعبد من بعض قومه ، ويسأله سبحانه عن ذلك :

﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ..(١١٦) ﴾ [المائدة]

فيأتى الجواب :

﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ..(١١٦) ﴾ [المائدة]

إذن : فالمراد أن يقول الرسول ﷺ : أنا لا أشك ولا أسأل .

والشك [١] - كما نعلم - معناه : تساوى كفة النفى وكفة الإثبات ، فإن رجحت واحدة منهما فهذا ظن ، وتكون المرجوحة وَهْماً وافتراء وكذباً .

وكلمة «الشك» مأخوذة من مسألة حسية ، فنحن نرى الصيادين وهم يضعون كل سمكة بعد اصطيادها فى خيط يسمى «المشكاك» .

وكذلك نرى من يقوم بـ(لضْم) العقود ، وهو يشك الحبة فى الخيط [٢] .

من هذا نأخذ أن الشك معناه : ضَمُّ شىء إلى شىء ، ومنه الشكائك [٣] ، وهى البيوت المنتظمة بجانب بعضها البعض .

---

(١) الشك : حالة نفسية يتردد معها الذهن بين الإثبات والنفى ، ويتوقف عن الحكم . [المعجم الوسيط] .
(٢) شك الشىء واشتكه : ضم أجزاءه . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .
(٣) الشكائك : جمع شكيكة ، وهى مجموعة أشياء شُكَّ - أى ضُمَّ - بعضها إلى بعض . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

ومنه «شاك السلاح [1]» أي: الذى ضَمَّ نفسه إلى الدرع.

فالشك هو ضم شيء إلى شيء، وفى النسب تضم النفى والإثبات معاً؛ لأنك غير قادر على أن ترجِّح أحدهما.

وكل خطاب فى الشك يأتى على هذا اللون.

والآية التى نحن بصددها تقول:

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ هو نفسه آية من الآيات، وهكذا نرى أن الخطاب مُوجَّه لأمته، فمن المستحيل أن يكون الرسول ﷺ من المكذِّبين لآيات الله - سبحانه وتعالى - لأن التكذيب بآيات الله تعالى يعنى: إخراج الصدق إلى الكذب، وإخراج الواقع إلى غير الواقع.

والذين كذبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أنزل على الرسول ﷺ.

والذى يؤيد هذا وجود آية فى آخر السورة يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ [2] اللَّهِ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

(١) الشِّكة: ما يحمل أو يلبس من السلاح. [المعجم الوسيط: مادة (ش ك ك)].

(٢) دون: نقيض فوق، وتكون ظرفاً، وتأتى بمعنى أمام، وبمعنى وراء، وبمعنى غير، وبمعنى قرب أو جهة، وبمعنى قبل، وبمعنى أقل. والتمييز بين هذه المعانى يكون بالقرائن. وهى فى الآية ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ [يونس] بمعنى (غير). [القاموس القويم] بتصرف.

فكأن الخطاب المقصود منه الأمة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ[1] عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وهذا القول يوضح لنا أن الحق سبحانه وتعالى قد علم عِلْماً أزليّاً بأنهم لن يُوجِّهوا اختيارهم للإيمان.

فحكمه هنا لا ينفي عنهم مسئولية الاختيار، ولكنه علم الله الأزلي بما سوف يفعلون، ثم جاءوا إلى الاختيار فتحقق علم الله سبحانه وتعالى بهم من سلوكهم.

وحُكْمه سبحانه مبنيٌّ على الاختيار، وهو حكم تقديري.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى- حين يأتي وزير الزراعة، ويعلن أننا قدَّرنا محصول القطن هذا العام، بحساب مساحة الأراضي المنزرعة قطناً، وبالمتوسط المتوقع لكل فدان، وقد يصيب الحكم، وقد يخيب نتيجة العوامل والظروف الأخرى المحيطة بزراعة القطن، فمن المحتمل أن يُصاب القطن بآفة من الآفات، مثل: دودة اللوزة، أو دودة الورقة.

إذن: ففي المجال البشري قد يصيب التقدير وقد يخطيء؛ لأن الإنسان يُقدِّر بغير علم مُطْلق، بل بعلم نسبي.

أما تقدير الحق سبحانه فهو تقدير أزلي، وحين يُقدّر الحق سبحانه فلا بد من وقوع ما قدَّره.

---

(١) حقت: وجبت عليهم كلمة ربك بالعذاب [تفسير الجلالين: ص ١٨٧].